دَوْر رفاعَة الطهطاوي

في تطوير النثر العَربي الحَديث

النثر العربي قبل النهضة وقبل الطهطاوي:

قبل النهضة العربية الحديثة وقبل رفاعة الطهطاوي(١٨٠١ ــ ١٨٧٣)، إمام نهضتنا وشيخها غير المنازع، وصل نثرنا العربي إلى مرحلة الاحتضار، إذ أصيب بوهن وسقم شديدين ، وبعقم خطير مستفحل في قالبه ومادته، بل لئن شئت الدقة أكثر فأكثر فقل إنه ابتلي بشلل تام دب في أوصاله، في أسلوبه وأفكاره، شكله ومضمونه، إذ غرق الكاتب في التقليد والاجترار والتعقيد والإبهام والإغراب والتكلف والتنميق والتزيين، عباراتهم تتهالك وسخفاً، جملهم ركيكة، تراكيبهم واهنة، معانيهم غثة مرذولة، أفكارهم ضحلة تافهة، أساليبهم رثة مهلهلة، تقيدها المحسنات اللفظية وفنون البديع المتصيدة تصيداً عجيباً.

من كان منهم على حظ من الأدب أو يدعيه، كان غاية من تفتقت عنه عبقريته، أن يؤلف المقامات وليته يحسن صنعاً أو يتقن فناً، فما يأتي به لبراء من فن المقامة وما هو إلا تصحيف وتشويه لهذا الفن ولا يمت له ولا للأديب بعامة بأية صلة كانت لا من قريب ولا من بعيد، غاية ما فيه عبارات مغتصبة وأساليب مسروقة من الأولين، تبدو ظاهرة للعيان، ومع التواء في العبارة وتكلف في السجع وحشد زاخر من المحسنات والبديع، يخاطبك الكاتب من وراء جدر سميكة وحجب صفيقة لا تستبين منها نفسيته

ولا تتعرف أحاسيسه لأن القوالب محفوظة والجمل مرصوصة. ولئن حاول أحدهم نبذ التكلف والركاكة والخروج عن التنميق والتزيين، فليته لا يفعل ذلك، لأنه يقع في هوة سحيقة لا قرار لها، فيجد أن عباراته المسجعة بفنون البديع، أسلم وأقوى وأجمل صياغة من عباراته التي يزعمها مرسلة، إذ غلبت عليها التركية والعامية والأعجمية لا في ألفاظها وكلماتها فقط، وإلا لهان ذلك، بل في طريقة تأليف الجمل وتركيبها وصياغتها.

وللأسف فإن هذا العقم أو الشلل المستفحل الخطير، عم نثرنا العربي كله ففي مصر نقرأ نصاً من مقامة لواحد من عمد أدباء زمانه هو الشيخ مصطفى الدمياطي جاء فيه (هاجت لي دواعي الأشواق العذرية وعادت بي لواعج الأتواق الفكرية إلى ورود حمى مصر المعزية البديعة ذات المشاهد الحسنة والمعاهد الرفيعة، ونقرأ رثاء لهذا المتفاصح من الجبرتي، نجد فيه مصداقاً للقول القائل (إن الطيور على أشكالها تقع) فنثر الراثي كنثر المرثي في سقمه وضعفه وعقمه، قال الجبرتي (مات أفضل النبلاء وأنبل الفضلاء بلبل دوحة الفصاحة وغريدها، من انحازت له بدائعها طريفها وتليدها) من نجوم الأدب المتألقة المشعة في دمشق آنذاك الشيخ خليل الدمشقي ونقرأ له كنموذج مقطعاً من رسالة قال فيها :(أهدي السلام العاطر باكراه السحاب الماطر والتحايا المتارجة النفحات الساطعة اللمحات الشامخة الشميم الناشئة من خالص صميم) .

وهاك نصاً من العراق، لأديب بارز في هذا العصر هو أبو الشفاء الألوسي يصف فيه نساء الأستانة فيقول (وفيها من النسوان ما يخيل أنهن

من حور الجنان وفيهن من عادات نساء الأعراب أنهن يبرزن إلى الأزقة بمجرد نقاب وقد حققت أن منهن من لا تخرج من بيتها إلا إلى الحمام ولا يحوم عليها طائر نظر أهل الأزقة، نعم لا يخلو غيل من واوي رأى بلد طويل عريض ليس فيه كلب عاوى) إلى آخر ما في هذا الهراء من سفاسف منفرة تثير الضحك ملء الأشداق، وهاك رسالة من الحجاز بعث بها شريف مكة إلى المدير العام للحدود المصرية(وبعدما: وصل إلينا كتابك وفهمنا كامل ما حواه خطابك فأوجب ذلك عندنا وافر السرور ومزيد الود والحبور)

من فلسطين العربية يطالعنا نص من تقرير رفعه أعيان نابلس ومنهم المفتي ورجل الدين والعلم والأدب، إلى إبراهيم باشا بن محمد علي سنة ١٨٤٠ يشكون فيه تصرف أحد ولاتهم (المعروض للأعتاب السنية السر عسكرية صانها رب البرية يعرض عبيدكم بخصوص أحمد آغا، حضر لعنده رجل يسمى علي مرعشلي من سباهية الاسلامبول وعند حضوره أظهر الأفراح بضرب الفتاش ببيته وضرب البارود فيه ليلاً ونهاراً، ومن كون ذلك مخالفاً للإرادة الشريفة وجب علينا تقديم الأعراض لأعتاب دولتكم لأجل يحيط العلم الشريف أن هذه الأمور ما أحد من أهالي نابلس داخلاً وخارجاً موافق المذكور) وواضح أن هذا النص أو تلك النصوص منها النثر الديواني ومنها النثر الأدبي الفني ومنها ما يسير نهج السجع والبديع وفن المقامة ومنها ما يأخذ بنهج الترسل والبساطة المزعوم ولا أظن أني بحاجة لأدل القارئ الكريم على ما في هذه النصوص من ركاكة وإسفاف وتكلف ذميم وتزيين مقيت مرذول وتهافت بالعبارة وضحالة وتفاهة وسذاجة في

الأفكار والمعاني واستعجام في الألفاظ عدا العامية الفاحشة، كما لست بحاجة لأدل القارئ على مواقع المحسنات اللفظية وفنون البديع التي جد أصحاب تلك النصوص بالتنقيب عنها.

أما عن عقم وجمود مضمون النثر العربي ومادته بهذه الفترة السوداء من تاريخ أدبنا العربي فحدث عنه ولا حرج، حيث أغرق الكتاب والمؤلفون أو على الأصح مدعو الكتابة والتأليف في وضع الشروح والحواشي والتقريرات والتلخيصات على المتون العقيم التي يطالعونها أو ينظمون منظومات العلوم أو المقامات المصحفة المشوهة الزيفاء أو الرسائل الأدبية التافهة الضحلة أو يؤلفون في اللغة والشريعة، ولئن حاول أحدهم أن يشذ عن أقرانه فيكتب بغير ذلك فيجد نفسه في هوة جديدة إذ تمتزج العلوم والمعارف التي يزعم ويدعي التأليف بها بالخرافات والأوهام والترهات الباطلة الفارغة، فالشرقاوي مثلاً حاول التأليف في التاريخ وليته ما حاول إذ مزج الحقائق التاريخية بالأساطير والخرافات الجوفاء وفسر التاريخ على منطق الجاهل الأرعن المتعفن بعقله وفكره المؤمن بالسحر والخوارق حيث ذكر في كتابه تحفة الناظرين أن أقصر الفراعنة عمراً عمَّر ٢٠٠ سنة وأطولهم عمراً عمَّر ٦٠٠ سنة وأن فرعون موسى كان قصير القامة طوله ستة أشبار وقيل أن طوله ذراعاً واحداً وطول لحيته سبعة أشبار وأنه حكم مصر ٥٠٠ سنة

والمهم من كل هذا أن كل من ادعوا التأليف بهذه المرحلة وقبل النهضة وشيخها وإمامها الطهطاوي بل حتى بعض معاصريه أنفسهم، لم يخرجوا عن حيز التقليد والاجترار والأدب الضحل الغث الهابط في قالبه

ومادته وعن الفقه والحديث والتفسير واللغة والنحو وعلومها ومزجوا العلوم الأخرى التي ادعوا أنهم يؤلفون بها بخرافات وسفاسف مرذولة وكأن لا معارف ولا علوم إلا معارف وعلوم السلف وكأن حياة الإنسان لا تستقيم ولا تقوم إلا بعلمي الشريعة واللغة وكأن الفكر الإنساني لا يحيا إلا بهذين وكان الأدب العربي لم يعرف غير المقامات والرسائل الأدبية والإخوانية العقيم وكأن العلوم ا لتي زعموا التأليف بها وليدة الأساطير والأوهام الفاسدة.

ويكفي دليل على عقم وسوء نثر هؤلاء الكتاب بمادته أو مضمونه أن يطالع المرء الكتب التي كانوا يطالعونها ويتزودون منها بزادهم الثقافي والفكري والعلمي، فواضح أن هذه المصنفات ليست إلا صورة باهتة مشوهة عن تراثنا العربي الأصيل إذ لا تعرض منه إلا جانباً مشوهاً من النحو والتفسير والفقه والحديث واللغة تلك العلوم التي اصطلحوا عليها بمصطلح المعقول والمنقول فكأن العرب لم يشغلوا أنفسهم إلا بهذه العلوم والمعارف العقيم وكان تراثنا الضخم لم ينجب ابن سلام وابن قتيبة والجاحظ والمعري وابن رشد والغزالي وابن خلدون وغيرهم وغيرهم من عمالقة الفكر العربي العظام.

وليت هذا فحسب بل إن هذه المتون أو الكتب العقيم كانت مقررة لتدرس للطلبة في أكبر دار علم في الشرق كله آنذاك، أي بالأزهر ولم يكن عالم الأزهر إلا الحافظ لتلك المعارف بشروحها وحواشيها أو من يضيف إليها الشروح والحواشي والتلخيصات والتقريرات الأخرى، لتبتلي بها المكتبة العربية أشر البلاء.

فإذا كانت تلك المتون والكتب الضحلة الغثة العقيمة هي الزاد الثقافي والفكري والعلمي الوحيد لطلبة وهو أ كبر منارة للعلم في الشرق كله، وهي المنهل الوحيد للمثقفين العرب، فما بالك بالمحصلة الفكرية والثقافية والعلمية التي سيخرج منها القارئون لتلك الكتب العقيمة وإن كان عالم الأزهر هو الحافظ لتلك المتون العارف بشروحها وحواشيها فما قولك ببقية الناس وماذا تتوقع بالتالي بعد هذا كله أن تكون مؤلفات زاعمي أو مدعي التأليف والبحث وهم لا يخرجون في ثقافاتهم وفكرهم وعلمهم عن تلك الكتب الغثة لابد أن ما سيطرحونه لنا سيكون أشد فقراً وغثاثة وعقماً وجموداً من الأصل المأخوذ عنه والمنهل منه.